الهدّية التي عادت إلى مهديها

يوسف يعقوب حداد

الحرب مكروهة ، والسلام محبوب ، ولكن ، حين يتعرّض الوطن للعدوان ، يغدو الدفاع عنه ، بالروح والدم ، واجبًا مقدسًا . كانت هذه الفكرة تراوده ، كلما ذهب الى الجبهة ، او عاد منها سالمًا.

كان إبنها الوحيد ، تحبّه كلّ الحب ، تخاف عليه من أن يصاب بأذى ، فقد انتظرت طويلاً حتى رزقها الله بهذا الولد الجميل ... والده لم يهنأ به طويلاً ، اذ فاجأه مرض عضال إستعصى شفاؤه منه ، فمات مخلّفًا قرينة ثكلى ، وولداً صغيراً ما زال في مرحلة الدراسة الأبتدائية .

شمرّت الأم عن ساعديها ، إشتغلت في خدمة بعض العوائل ، فأظهرت صبراً وقناعة ورضيت بما قسمه الله لها من نصيب ... ربّت ولدها تربية صالحة ، علّمته حتى اكمل دراسته وأحرز شهادة عالية في الهندسة .

رأى أمّه تصلّي كثيراً ، فاتبّع مسلكها واقتدى بها ، واستولى على مسبحتها ذات الصليب الحديدي الكبير ، فعلّقه في عنقه ، وتعلّق به ، حبًا ، وإيمانًا وتقوى .

حين دعاه الداعي الى الألتحاق بجبهة القتال ، لبى الدعوة طائعًا ... لم يحزن ، لم يتأفّف، لم يخفْ ، إتكل على الله ، ومشى الى الجبهة موقنًا كل اليقين ، أن ربّه لن يخذله، إن لم يكن من أجله ، فمن اجل أمّه التي تعبت كثيراً ، وتحمّلت كثيراً في تربيته .

في البيت ، او في الجبهة ، لم يكن صليبه يفارق صدره ، في الليل البهيم ، في بحر من الظلام الدامس ، تحت خيمة ربه الكبيرة ، كان يمسك بصليبه وهو يبتهل الى صاحب الصليب ، ان لا يتخلّى عنه وأن يحرسه.

« ربٌ ... أنا عبدك ... إشملني برعايتك ، وادفع الأذى عني ... أنا هنا أدافع عن وطني، لستُ بغازٍ ولا بطامع .. يا ربّ ... أنت العادل ... أنت الحق ، فلا تتركني وحدي ... معي هذا الصليب ، يؤنس وحشتي ، ويُطمئن قلبي ، ويبعث في نفسي الشجاعة كي لا أخشى الموت » .

جرجيس ، مقاتل شجاع ... كان آمره يحبّه ويحترمه ، يوكل اليه بكل المهمات السرية لأنه يعرف ، أن هذا الجندي ، مؤمن بربه ، مخلص لدينه ، أمين في تعامله ، شجاع لا يُشقّ له غبار !

إحتدمت المعركة ، وتعرّض موقع جرجيس للعدوان ، لم يرتجف قلبه ، لم يفزع ، أمسكَ بصليبه ، رفع رأسه الى السماء ، هتف بين شفتيه :

« يا صاحب الصليب ... أعدني الى أمي سالمًا ، أخرجني من هذه المعركة منتصراً غانمًا ! »

وسقط جرجيس مضرّجًا بدمه كما سقط العشرات من رفاقه المقاتلين .

لم يكن ميتًا حين حملوه الى المستشفى ، كانت فيه بقيّة من حياة ... وهو في إغماءته – وقد نزف الكثير من دمه – رأى بين جفنيه ضوءاً ساطعًا يدخل عليه من نافذة صالة العمليات ... إقترب الضوء منه ، تجسّد ملاكًا سماويًا ، همس في اذنه «جرجيس ، لا تخفْ .. ضع يدكَ على صدرك ، أين صليبك ، إنه مشقوب ... الرصاصة التي أصابتك اخترقته ... لأن الله كان بجانبك ، تذكّر ان الله لا ينسى عبادَه الصالحين ... هو الذي جعل الرصاصة تنحرف عن مقتل في صدرك ، هو الذي حمى قلبك من ان يمزقه الرصاص ... تذكّر ، ان الله كان دائمًا معك ! »

عاد جرجيس الى امه بعد غيبة طويلة ، شبكت جسده النحيل بذراعيها ، وقبلّته في صدره ، ولكنها ابتعدت عنه مذعورة ، وهتفت به : « جرجيس ، أين صليبك ؟! »

قال وهو يوزّع قبلاته فوق خدّيها :

« أمّاه ... لقد استعاد الله هديّته ، ومنحني الحياة ! »